حركة التأليف فى العالم العربى

للأستاذ عباس محمود العقاد

منذ فترت حركة الجمع وتدوين الموسوعات فى أواخر أيام المماليك ، وقبيل انتهاء الدولة العثمانية ، لم يتجدد النشاط الثقافى بالعالم العربى إلا فى مطلع القرن التاسع عشر ثم فى مطلع القرن العشرين .

وجاء التجدد على مرحلتين : إحداهما كان مدارها على الترجمة من اللغات الأجنبية وإحياء الكتب السلفية ، وهى المرحلة التى بدأت عند مطلع القرن التاسع عشر .

والأخرى أضافت إلى ترجمة الكتب الأوربية وإحياء الكتب السلفية محاولات موفقة فى ميدان التأليف المبتكر ، وهى المرحلة التى بدأت عند مطلع القرن العشرين ، وكانت لها علاقة باعلان الدستور العثمانى من جهة ، ثم باستقلال الأقطار العربية بعد الحرب العالمية الأولى من الجهة الأخرى .

وكان تجدد النشاط الثقافى على هاتين المرحلتين طبيعياً موافقاً لمجرى الأمور فلم يكن من الميسور أن ينتقل العالم العربى من الجمود والنكسة إلى الابتكار واستقلال الفكر دفعة واحدة ، ولم يكن له غنى فى مبدأ الأمر من الاقتباس تارة من الأقدمين وتارة من المعاصرين ، وساعده على إحياء الكتب القديمة ظهور المطبعة فى البلاد الشرقية ، وساعده على الترجمة من اللغات الأوربية دخول الشرق والغرب فى صلة جديدة من صلات التشابك فى السياسة والتجارة ، واعتقاد الشرقيين أن الاقتداء بالأمم الأوربية فى العلوم الحديثة هو سبيل الخلاص والأمان من الهزيمة فى هذا المعترك الجديد .

وتناولت الترجمة ما تدعو إليه حاجة الدولة وما تدعو إليه حاجة القراء على التعميم ، فترجمت كتب التاريخ والطب والرياضة والقانون ، كما ترجمت الروايات القصصية والمسرحية وموضوعات التاريخ التى لا تراد للتدريس .

وسارت هذه الحركة على سنّة التدرج البطىء فى أكثر الأحيان ، فلم تسبق حاجة الأمة بل كانت تأتى فى أوانها على حسب الحاجة إليها ، وقلما تزيد .

ثم تقدمت الشعوب العربية ونالت نصيباً من الحريات السياسية واستعادت الثقة بنفسها والقدرة على الاستقلال فى تفكيرها ، فظهرت حركة التأليف المبتكر إلى جانب حركة الترجمة والإحياء ، وبدأت بوادر هذا الاستقلال قبيل الحرب العالمية الأولى ثم بلغت أوجها فى أثناء الحرب العالمية الثانية ، ولكن على غير سنّة التدرج الذى يقاس عليه .

فنى أثناء الحرب العالمية الثانية تضاعف إنتاج المؤلفين والناشرين وتلاحق ظهور الكتب الحديثة على نحو لا يناسب التدرج الطبيعى بالقياس إلى السنوات القريبة التى سبقت الحرب العالمية الثانية ، وإن كانت الفترة بين سنوات الثلاثين وسنوات الأربعين فى القرن العشرين معدودة من فترات اليقظة والنهوض .

وكان من الواجب أن تقاس الحركة إلى ما بعدها كما تقاس إلى ما قبلها لإبعاد الأسباب الطارئة والاعتماد على الأسباب المستمرة التى يطّرد عليها القياس .

وقد تبين فعلاً أن الطفرة فى حركة التأليف خلال الحرب العالمية الأخيرة كانت ترجع إلى أسباب طارئة كثيرة ، انقطعت آثارها بعد انتهاء الحرب بنحو سنتين :

من هذه الأسباب أن الناس كانوا يقضون السهرات فى البيوت لتقييد الإضاءة فى الأماكن العامة حذراً من الغارات الجوية ، فاتسع لهم وقت القراءة والاطلاع على الكتب والمصنفات .

ومنها ضيق حيز الصحف اليومية والأسبوعية وتوقف المنازعات الحزبية التى كانت تستهوى كثيراً من القراء إلى المطالعات الصحفية .

ومنها امتناع الوارد من الكتب الأوربية وتشديد الرقابة على الصحف الخارجية .

ومنها كثرة النقود المتداولة فى الأيدى ، فلم يكن من العسير على الكثيرين شراء الكتاب بالثمن الذى يستدعيه غلاء الورق وارتفاع الأجور فى تلك الأيام .

وإلى هذه الأسباب وما إليها كان مرجع الطفرة فى حركة التأليف خلال الحرب العالمية الأخيرة .

فلما انتهت الحرب أمكن أن تقاس حركة التدرج بالعوامل الطبيعية التى تميل إلى الثبات والاستقرار ويقل فيها التقلب والاضطراب .

وأهم هذه العوامل الطبيعية المستقرة مطالب الاستقلال السياسى ومطالب التعليم باللغة العربية ، ومطالب التعبير عن الوعى القومى الجديد والبواعث الاجتماعية الحديثة .

ومن مطالب الاستقلال السياسى كثرة البحث فى الدساتير والنظم الحكومية ومسائل الاقتصاد وتحضير الميزانية وتشريعات الضرائب وما إليها ، وهذه هى البحوث التى كان لها نصيب واف من عناية المؤلفين والمقتبسين فى معظم الأقطار العربية التى تنهج على منهج الحكم الدستورى الحديث .

ومن مطالب التعليم باللغة العربية كثرة التأليف والاقتباس فى مواد الدراسات الأدبية والقانونية والاقتصادية ، ولهذا تعددت المؤلفات والمقتبسات فى هذه المواد التى تدرس باللغة العربية ، ولا يزال التأليف الطبى أو الكيميائى ناقصاً فى مصر وبلاد العرب عامة ، لتدريس هذه المواد باللغة الإنجليزية وصعوبة نقلها قبل تعريب مصطلحاتها وإيجاد صلة بينها وبين لغة العرب كالصلة بينها وبين اللغات الأوربية منذ عهد اللاتينية والإغريقية إلى الآن .

أما مطالب التعبير عن الوعى القومى الجديد والبواعث الاجتماعية الحديثة فقد برزت فى اللغة العربية على صور شتى : بعضها يرتبط بالقديم وبعضها يحاول قطع الصلة بالقديم ، وقد صنع « الوعى القومى » صنيعه فى الموازنة بين هاتين الدعوتين المتقابلتين ، فأوشك العقل العربى أن يتحرر من جمود التعصب لكل ما سلف كما يتحرر من جمود التعصب لكل ماجد أو طرأ من جانب المحدثين.

وقد اتخذ التعبير عن الوعى القومى أساليبه المختلفة من إحياء المآثر ودراسة الأبطال وعرض العصور التاريخية على المناهج العلمية ، وشرح الأدب العربى فى ضوء الحقائق النفسية والاجتماعية ، كما اتخذ له أساليب أخرى فى باب القصة والمسرحية للتعبير عن حياة البيت ونهضة المرأة وعلاقات الطبقات ، ولا تزال

هذه الحركة ماضية فى سبيلها على نمط يبتعد مع الزمن عن التقليد والمحاكاة ، ويقترب من استقلال التفكير وإتقان التصوير .

ونحن فى عصر يتكلم فيه المتكلم عن حركة التأليف وينبغى أن يتناول بها نطاقاً أوسع جداً من النطاق الذى كان الباحثون يلتزمون حدوده إذا تكلموا عن حركة التأليف قبل مائة سنة أو مائتين .

ففى القرن التاسع عشر — مثلا — كانت الإحاطة بالكتب المطبوعة تكفى لحصر التأليف كله فى نطاقه الذى لا يتعداه .

أما اليوم فالكتب المطبوعة لا تكفى لتصوير حركات الأفكار والخواطر فى مجموعة الأمة ولا فى طوائفها المتفرقة . فان تصوير هذه الحركات يدخل فيه حساب الروايات السينمائية التى تعرض على اللوحة البيضاء وقلما تقرأ على الورق ، ويدخل فيه حساب المسرحيات الشعبية وأكثرها يسمع ولا يقرأ ، ويدخل فيه حساب الإذاعة وهى تخاطب المستمعين من القارئين والأميين .

فإذا أدخلنا ذلك كله فى الحساب فحركة التأليف بمعناها الواسع أكبر وأقوى من حركة المطبوعات فى نطاقها المحدود ، وجاز لنا أن نقول إن يقظة الوعى العربى كما تدل عليه هذه التعبيرات المتعددة قد بلغت من القوة والاستقلال فى ربع القرن الأخير ما لم تبلغه قط فى زمن مثله من أزمنة العصور الأخيرة .

ومن علامات الخير أن تنطلق ألسنة المتعلمين وغير المتعلمين بما يجيش فى صدورهم من الخواطر والشكايات ، فان لم يخرجوا لنا فناً عالياً مهذباً أخرجوا لنا على الأقل صورة صادقة للعصر من جميع نواحيه ، ولأبناء العصر على اختلاف درجات التفكير .

ويسبق إلى بعض النقاد أن هذه الوجهة من حركة التأليف وشيكة أن تعوق التأليف المهذب عن وجهته العالية ، ولكننا إذا اعتمدنا على التجربة المحسوسة لم نجد فيها ما يسوغ هذا التقدير . فإن روايات الصور المتحركة بلغت أوجها من الشيوع والانتشار فى الوقت الذى راجت فيه مصنفات الأدب والتاريخ أكبر رواج . فلا تعارض فيما نعتقد بين الآداب العالية والآداب الشعبية ، إذ هما

لا تتجهان إلى فريق واحد ، ولا تتجهان إلى مطلب واحد من مطالب العقل ، والذوق فى الفريق الذى تتجهان إليه .

* * *

ألمحنا فيما تقدم بعوامل الطفرة فى فترة من الفترات التى مرت بها حركة التأليف فى الأقطار العربية .

وهى عوامل غير طبيعية قفزت بحركة التأليف وقتاً من الأوقات قفزة لا تناسب ما تقدمها من التدرج البطىء أو التدرج السريع .

إلا أن العوامل — غير الطبيعية — لا تنحصر فى ظواهر الطفرة وحدها ، بل تمتد أيضاً إلى ظواهر التخلف والتثبيط .

فلو أن يقظة الذهن العربى سارت على نهجها المعقول بين أبناء الأقطار العربية لوجب أن تسبق عصرها الحاضر بعدة سنين .

فى العالم اليوم نحو خمسين مليوناً يتكلمون العربية ، وعدة ملايين يتعلمونها ويقرأون فيها ، وليست مكانة الأدب العربى حتى يومنا هذا بالمكانة التى تناسب هذا العدد الكبير من بنى الإنسان .

ويخيل إلى بعضهم أن الأمية هى العقبة الوحيدة التى تتخلف بالأدب العربى عن مكانته العالمية .

وهى ولا ريب عقبة لا يستهان بها فى هذا السبيل ، ولكنها ليست بالعقبة الوحيدة على التحقيق .

إذ أن الأميين بين العرب فى العصر الحاضر لا تزيد نسبتهم على نسبة الأميين بين الروسيين قبل سبعين سنة ، ولم يمنعهم ذلك أن يساهموا فى الآداب العالمية بحظ وافر ، وأن يكون للمؤلف الروسى قراء بين الأوربيين لا يقلون عن قرائه فى لغته وبين أبناء بلاده .

وإنما العلة فى هذا الفارق هى الفارق فى الأوضاع وليست هى الفارق فى طبقة التفكير .

فهناك مائة مليون إنسان يقيمون فى بقعة واحدة ويتعاملون على نظام واحد

ولا تفصل بينهم حدود الحكومات وما وراء هذه الحدود من قيود الإصدار والإيراد .

أما العرب فهم خمسون مليوناً متفرقون بين عشرة أقطار أو أكثر من عشرة أقطار ، وكل قطر منها يشعر بالحدود بينه وبين الأقطار الأخرى فى جميع المعاملات ومنها المعاملات الثقافية ، ولعلها فى الطليعة بين جميع المعاملات إذا نظرنا إلى الأغراض الأجنبية التى تصطدم بالنهضة العربية على العموم .

وهناك فارق آخر من فوارق الأوضاع لا علاقة له بقيام الحدود بين الأقطار العربية ، وهو تركيز القيادة الفكرية والاجتماعية فى العواصم الكبرى وتفاوت النسبة بين عدد السكان وعدد القراء . فالقاهرة وحدها مركز ثقافى يكاد يساوى القطر كله فى نسبة القراء إلى السكان ، وثقافة العراق تدور على مدينتين أو ثلاث ، ويصدق هذا بعض الصدق على بيروت وجبل لبنان .

فالأمية عقبة قائمة فى وجه التأليف العربى ، ولكن أوضاع الحدود وسوء التوزيع بين المراكز الثقافية أقوى من عقبة الأمية بكثير .

ولو أصبح للتأليف العربى سند من القراء كالسند الذى يعتمد عليه التأليف بين خمسين مليوناً يقيمون فى صعيد واحد ، ويجرى توزيع المراكز الثقافية بينهم على نسبة السكان ، لتقدمت حركة التأليف العربى بعدة سنين ، ولم تعقها كثرة الأميين وهم يتناقصون على الدوام .

ومناط الأمل فى هذا وحدة الثقافة بين بلاد العرب ، وهى من الآمال التى تنعقد بالجامعة العربية فى مقدمة الهيئات التى تكفل التعاون بين الحكومات والشعوب على تحقيق الخير للعرب أجمعين .

عباس محمود العقاد